الفصل الثانى

القرآن .. والتحديات
بين الأمس .. واليوم

● **التحديات الفكرية والعقائدية للقرآن فى الماضى ـ تحديات الوثنية المادية :**

.. واجهت الدعوة الاسلامية ـ وهى دعوة لتنظيم الاستمتاع بالحياة المادية التى يعيشها الإنسان على الأرض ، على أساس أخلاقى ، وفى رعاية لكرامة الإنسان ، تحقيقا للعدل الاجتماعى بين الأفراد جميعا ـ واجهت وهى بمكة : تحديات الوثنية المادية ، أو تحديات الشرك ، واتهامات الماديين للقرآن بأنه : سحر وخداع .. وبأنه أساطير الأولين اكتتبها الرسول عليه السلام .. وبأنه أضغاث أحلام يصعب تفسيرها .. وبأنه مؤلف ومتقول ، ونسبت افتراء إلى وحى الله .

.. كما واجهت اتهام هؤلاء الماديين ، أو المشركين للرسول عليه الصلاة والسلام ، بأنه : كاهن .. ومجنون .. وشاعر .. ومسحور ـ أى معلل بالأكل والشرب ـ وبشر ، وليس بملك .. وأنه ليس من الأثرياء ، ولا من العظماء والزعماء .. وأنه تعلم القرآن ونقله عن غيره .

.. وأخيراً واجهت سوء تصورهم لله على أنه ، سبحانه ، جل جلاله :

يلد وينسل ، وأن الملائكة بنات له وأن له شركاء من الجن .. ومن الأصنام .. وأنكروا وحدته فى الألوهيـة .. كما أنكروا البعث واليوم الآخـر .. وحرموا ما أحله الله ، استغلالا للأموال الخاصة ، لمصالح كهانهم وأصحاب الرياسة الدينية فيهم .

وقد تكفل القـرآن الكريم فى السـور المكية فيـه بالرد على هـذه الادعاءات . ومن قراءتها جميعها تحدد الاتهامات . ومنهج رفضها ونقضها . وسورة الطور تشير إلى كثير مما وجه إلى الرسول عليه السلام ، وإليـه سبحانه ، وإلى رفضه وإنكاره فى صورة تحد أو سخرية واستهزاء فى قول الله تعالى :

« **فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون . قل تربصوا فانى معكم من المتربصين . أم تأمرهم أحلامهم بهذا ، أم هم قوم طاغون . أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثـله ان كانوا صـادقين . أم خلقوا من غـير شىء** (أى من غـير خالق) **أم هم الخالقون . أم خلقوا السموات والأرض ، بل لا يوقنون . أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون . أم لهم سلم يستمعون فيه ، فليأت مستمعهم بسلطان مبين .** (أى بحجة واضـحة) **أم له البنات ولكم البنون . أم تسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون . أم عندهم الغيب** (عن طـريق الرسـالة إليهم) **فهم يكتبون . أم يريدون كيداً ، فالذين كفروا هم المكيدون . أم لهم الله غير الله ، سبحان الله عما يشركون . وان يروا كسفاً من السماء سـاقطاً يقولوا سحاب مركوم . فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون** » (١) ..

.. فهذه السورة تشير إلى ادعائهم بالنسبة للرسول عليه السلام : بأنه كاهن .. ومجنون .. وشاعر ، وإلى وصفهم القرآن : بأنه متقول ومؤلف له ، ونسب إلى الله كذبا ، وإلى وصفهم الله بأنه يلد .. وله شركاء من غيره .

ولتأكيـد أن هـذه الاتهامات اسـتهدفت من جانب هـؤلاء الماديين والوثنيين : الكيد للرسول عليه السلام .. كما استهدفت تجميد دعـوته ، نصحه القرآن ــ عليه السـلام ــ بأن ينصرف عنهـم ويستمر فى دعـوته : « **فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون** » .. وذلك بعد أن أكد

---

(١) الطور : ٢٩ ــ ٤٥

له : أنهم هم أنفسهم الذين سيصابون وحدهم بأضرار كيدهم : **« فالذين كفروا هم المكيدون »** ..

وتصدرت سورتا : المائدة ، والأنعام ، بوجه خاص للرد على افتراءات الكهان فى الحل والحرمة فى أموال الناس . على نحو قول الله تعالى : **« ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون »** (٢) ..

وقوله : **« وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل الى الله ، وما كان لله فهو يصل الى شركائهم ، ساء ما يحكمون »** (٣) ..

* * *

● **تحديات العقائد والمذاهب الدينية فى الشرق :**

لم يبق المجتمع الإسلامى على عهد قيامه بالمدينة خاصا بالمسلمين وحدهم . وإنما بعد فتح مكة لم يدخل المكيون فقط ، ولا العرب فى شبه الجزيرة العربية وحدهم فى دين الله أفواجا . بل دخله هؤلاء وهؤلاء ، ومعهم تباعا تلك المجتمعات ، مما كانت تظللهم الحضارة الرومانية أو الحضارة الفارسية فى الشرق الأدنى ، ثم فى الشرق الأوسط ، والأقصى ، وشمال إفريقيا .. إلى آخر ما يعرف من مجتمعات إسلامية فى آسيا .. وإفريقيا وأوروبا .

ومع امتداد ظل الإسلام على أرض الله اتصل الإسلام برواسب الثقافات القديمة .. والأديان والمذاهب السابقة على الإسلام ، مما كانت لدى أهل الكتاب ، أو من لهم شبهة بكتاب .

* * *

● **تحديات علم الكلام عند اليهود والمسيحيين :**

فاتصل الإسلام بعلم الكلام عند اليهود والمسيحيين ، وابتدأ يراود تفكير المسلمين : بعض آراء لهؤلاء وأولئكم فى مشاكل كانت لهم خاصة :

---

(٢) المائدة : ١٠٣ (٣) الأنعام : ١٣٦

كمشكلة الأقانيم .. ومشكلة الرجعة ، والمهدى المنتظر .. ومشكلة الحلول وعصمة الإمام .. ومشكلة التجسيد والتشبيه .

وأصبحنا نرى عند متقدمى المدرسة الاعتزالية كأبى الهزيل العلاف : حلا لتعدد صفات الله على نمط حل علم الكلام المسيحى لتعدد الأقانيم . فيرجع الصفات جميعها إلى صفتى العلم والحياة ، ثم يتصور أنهما عين الذات . وعلم الكلام المسيحى ــ متأثراً بالأفلاطونية الحديثة ــ يعود بأقنومى : ابن الله .. والروح القدس .. إلى ذات الله . أى أن الأقانيم الثلاثة لا تشكل فى الوجود إلا موجوداً واحداً له صفتان .

.. وأصبحنا نرى أيضا : مشكلة الرجعة فى علم الكلام اليهودى ، وعلم الكلام المسيحى خاصة بعيسى ، يتبناها بعض مذاهب الشيعة بالنسبة للإمام، كما تصبح الرجعة نفسها من عقائد هذه المذاهب ، وتتفرع عنها : فكرة المهدى المنتظر ، والأحاديث المتصلة بها . وتقوم الرجعة على أساس أن الإنسان المميز بالرسالة أو الأمانة لا يموت . بل يختفى فقط إلى وقت معلوم يظهر بعده حاملا رسالة **الإصلاح للبشر من جديد .**

.. أما مشكلة الحلول ــ التى هى أصلا من روافد الفكر البوذى والبراهمى ــ وتلقفتها الكنيسة المسيحية لتقيم عليها عصمة البابا فى الرأى . ووجوب الطاعة له فى غير حد وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من العقيدة الكنسية .. فإنها برزت فى الفكر الشيعى بين المسلمين . وتطبيقا لها فى هذا الإتجاه الشيعى يتمتع « الإمام » بالعصمة فى القول والرأى . بل يذهب بعض أتباع الحلول إلى إسقاط التكاليف التى كان الرسول عليه السلام قدوة فى أدائها : عن الإمام المعصوم ، المشاهد ، أو المغيب على السواء .

.. ومشكلة التجسيد والتشبيه عندما أثيرت أولا فى علم الكلام اليهودى ، ثم فى علم الكلام المسيحى : أثيرت تحت ضغط الفهم الحسى أو الفهم المادى للمعبود وصفاته ، وهو فهم يقوم على قياس الغائب على الشاهد ، الذى تستخدمه الوثنية المادية فى وصف المعبود المعين ، فالوثنية المادية لا تتحرج من وصف المعبود بالذكورة أو بالأنوثة .. وبالزواج .. وبالنسل .. وبالأكل والاستمتاع ، على نحو ما يستمتع الإنسان .

وابتدأنا نرى المشبهة أو المجسمة طريقا لبعض الكلاميين فى تحديد صفات الله التى تعطى فى ظاهرها : الميل إلى ما للإنسان ، تقريبا للمعنى من طاقة العامة على الفهم : كالاستواء على العرش فى قوله سبحانه :« **الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش** » (٤) .. وكالحديث عن يد الله ، فى قول الله تعالى : « **ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم** » (٥) .. وفى قوله : « **بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء** » (٦) ..

* * *

● **تحديات الفكر الفارسى :**

كما اتصل الإسلام ـ بعد خروج المسلمين به من شبه الجزيرة ـ بالفكر الفارسى وهنا عرف المسلمون مذهب المثنويين . والمثنويون هم القائلون بإلهين فى تعليل نظام الوجود للعالم : إله للنور .. وآخر للظلمة . والأنوار فى العالم هى الموجودات العليا ، وعلى رأسها نور الأنوار . بينما الظلمة : للمادة والكائنات التى تبعد عن محيط الأنوار فى الأرض .

وعن اتصال المسلمين بالفكر الفارسى ظهر فى تفكيرهم ما يسمى « بالإشراق » . وهو اتجاه يلائم بين تصور الوجود فى نظام الإسلام على أن الله هو الأول والخالق وحده ، وبين ذلك التصور الآخر الذى توحى به المثنوية من ترتيب الموجودات فى النور .. والظلمة . فأطلق على الله : نور الأنوار .. كما أطلق على الملائكة أنهم : أنوار ، ونورانيون ، يتلونه فى مرتبة الوجود فى تسلسله .. إلى المادة . وأبرز أصحاب هذا الاتجاه الإشراقى فى التفكير الإسلامى هو السهروردى المقتول فى القرن السادس الهجرى .

* * *

● **تحديات الفكر الهندى :**

وانفتح طريق الفكر الهندى أمام المسلمين . وهو تفكير قائم على الدعوة

---

(٤) الفرقان : ٥٩
(٥) الفتح : ١٠
(٦) المائدة : ٦٤

إلى الهروب من الدنيا ، ومن الاستمتاع بمتعها .. هو تفكير صوفى يستهدف فناء الجسم فى الإنسان .. واتحاد روحه مع براهما .. الإله الأكبر . وأقبل بعض العلماء من المسلمين على هذا الاتجاه الصوفى ، والربط بينه وبين ما يطلب فى الإسلام من الزهد ـ بمعنى عدم الإسراف ـ فى استخدام متع الحياة . فظهر فى الفكر الإسلامى الصوفى : ما يسمى « بوحدة الوجود » وهو مفهوم يعطى تصور اتصال روح الإنسان بالله تعالى .. ثم اتحاده به . وعندئذ يحل الله فى الإنسان ، أو تتحد روحه بذاته جل جلاله . وفى مقدمة أصحاب « وحدة الوجود » فى الفكر الإسلامى محيى الدين محمد بن عربى . وفى تفسيره للقرآن الكريم : الكبريت الأحمر .. يكشف عن هذه الوحدة الشاملة فيما يفسر به قول الله تعالى : **« ولله المشرق والمغرب ، فاينما تولوا فثم وجه الله ، ان الله واسع عليم »** (٧) ..

* * *

● **تحديات الفكر الوثنى الاغريقى :**

أما تحديات الفكر الوثنى الإغريقى فقد خلفت فى التراث الفكرى الإسلامى عدة مشاكل . أهمها :

مشكلة العقل والوحى . ويقصد بالعقل ما أتى إلى المسلمين عن طريق نقل العلوم إلى اللغة العربية : من فلسفة الإغريق فى أصل الوجود ، وعلته الأولى وبالأخص ما أثر عن أفلاطون وأرسطو .

والفارابى فى كتابه : « نصوص الحكم » : حاول التوفيق بين خصائص الوحى للرسول عليه السلام ، وما يصل إليه الفيلسوف بسبب تجرده من التأثر بماديات الحياة : إلى الحكمة والصواب فى الرأى . ولكن رغم دقة المحاولة العقلية للتوفيق عنده فإنه لم يوفق إلى إزالة التناقض بين الوحى كعمل إلهى واختيار من الله للإنسان الموحى إليه .. والحكمة كمستوى إنسانى يصل إليه الإنسان بمجهوده البشرى وجهاده لنفسه .

.. وكذلك مشكلة الشرع والعقل ، ومدى ما يصل إليه العقل البشرى

---

(٧) البقرة : ١١٥

من إدراك الحسن والقبح ، مستقلا عن الشرع ، وما يترتب على إدراكه من وجوب التكليف بما يذهب إليه الشرع قبل التبليغ للرسالة ، أو فى غيبة هذا التبليغ . وتعرف هذه المشكلة فى المدرسة الاعتزالية باسم : الحسن والقبح العقليين .

.. وكذلك مشكلة الصلاح والأصلح ، أو مشكلة العدل الإلهى . وهى تتجه إلى أن العقل البشرى يصل بمنطقه إلى وجوب الأصلح على الله . إذ فى تحقق الأصلح للإنسان يتحقق العدل الإلهى . وتسمى المعتزلة ــ من أجل احتضانهم لفكرة العدل ــ باسم أهل العدل . لأنهم يحكمون العقل فى تحديد الصلاح ، وتحديد الأصلح ، ولكنهم يتجاهلون : أن التجربة مع الإنسان الأول ، وهو آدم ، فى الجنة أتت بعدم استطاعة العقل : كشف الأصلح له . وإلا : ففيم الندم إذ يقول هو وحواء ، متضرعين إلى المولى جل جلاله : « **قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين** » (٨) .. فاعترفا بالخطأ والمعصية ، ولم يكن العقل واقيا لهما إذ ذاك من الوقوع فى الخطأ ، فضلا عن هدايتهما إلى الأصلح لهما .

.. وقد أخذت مشكلة : « واجب الوجود » فراغا كبيراً فى مؤلفات علم الكلام الإسلامى .. وفى الفلسفة الإسلامية . وهى مشكلة تلقفها بعض فلاسفة المسلمين المشائيين على أنها سند لدعوة الإسلام إلى الوحدة فى الألوهية ، التى واجهت بها الدعوة الإسلامية : الوثنية المادية بمكة ، وجعلتها الضمان لعودة الصفاء إلى رسالة إبراهيم وإسماعيل ، ولتصحيح الرسالة الإلهية فى تاريخها الطويل من تشويه الشرك والإلحاد .

ومفهوم « واجب الوجود » ــ كما هو فى فلسفة أرسطو ــ يسىء فى نقله : إلى الله سبحانه وتعالى ، كما يحدد القرآن الكريم : صفاته ، جل وعلا . كما يسىء إلى المؤمنين به فى تصورهم إياه . فواجب الوجود فى الفلسفة الأرسطية يطلق على العلة الأولى ، وهى موجود يعشق لكماله . ولكن ليست له فاعلية فى غيره ، فضلا عن أن يكون خالقا له . وكل ما يعطيه لتحديد ذاته : أنه واحد من كل وجه : فى التصور .. وفى الواقع . فليس

---

(٨) الأعراف : ٢٣

متعددا فى ذاته .. وليس مركبا من أجزاء : حقيقية أو فى التصور . وعن هذا التحديد لذات واجب الوجود فى الفلسفة الأرسطية وقبوله لدى بعض المسلمين نشأت مشكلة الصفات لله فى تصور المسلمين لذاته : هل الصفات لله هى عين ذاته ؟ .. أم هى غيرها .. أم هى لا عينها ولا غيرها .. هل إذا كانت عين الذات ترد إلى صفتى : العلم ، والحياة أولا .. ثم إلى الذات ؟ أم ترد جميعها مباشرة إلى الذات ؟ . وفى الإجابة عن هذين السؤالين يختلف السلف بين مذاهب علم الكلام عن المعتزلة والفلاسفة المسلمين .. ويختلف السابقون فى مدرسة الاعتزال عن المتأخرين منهم فيها . ويتعقد التصور الذهنى للمسلم العادى : عن الله سبحانه وتعالى .. ويتشعب المسلمون ما بين : صفاتيين .. ونفاة للصفات ، وأصحاب توحد .

.. وتتصل بفكرة واجب الوجود فى الفلسفة الإغريقية : فكرة العقول العشرة .. من العقل الفعال .. إلى العقل المباشر لتدبير الإنسان ، وهو عقل القمر ، وتقبل هذه الفكرة من الفلاسفة المسلمين المشائيين ، ويحاولون أن يلائموا بينها وبين ما جاء فى القرآن عن خصائص الملائكة من أنهم مقربون إلى الله ، كما جاء فى قوله تعالى :

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون » (٩) .. وشرحا لهذا القرب من الله ـ وتوفيقا بين الفلسفة والدين ـ يجعلون الملائكة عقولا خالصة ، أى جواهر لا تتصل بالمادة ، إلا اتصال تدبير . ويدرجون هذه العقول فى تنازلها من العقل الأول ، وهو الله .. إلى العقل الفعال الذى يناط به التسجيل لأعمال الإنسان . فالله عقل .. وكل ملك عقل بعده . كما يدرج أصحاب فكرة الإشراق الأنوار فى وجودها عن نور الأنوار بعد أن يطلقوها على الله والملائكة معا .

.. وأصبح بعد هذا التوفيق بين ما وفد من المشرق ، والمغرب .. وبين ما جاء فى الإسلام : ثلاث صيغ أمام المسلم . تعبر عن مدلول دينى واحد ، وهى :

أولا : الله الخالق .. والملائكة ، كما يعبِّر القرآن .

---

(٩) النساء : ١٧٢

ثانياً : العقل الأول ، وهو الله واجب الوجود .. والعقول الفعالة ، وهى الملائكة ، كما تعبر الفلسفة الإغريقية والقرآن ، بعد التوفيق .

ثالثاً : نور الأنوار ، وهو الله .. والأنوار الصادرة عنه وهى الملائكة ، كما تعبّر فلسفة الاشراق والقرآن ، بعد التوفيق .

.. وأصبحنا نقرأ فى الثقافة الإسلامية : الله سبحانه .. وواجب الوجود .. والعقل الأول .. والعلة الأولى ، من جانب .

.. الملائكة .. والجواهر الفردة .. والعقول النورانية من جانب آخر . والقرآن لم يرد بواجب الوجود ولا بالعلة الأولى .. كما لم يرد بالجواهر الفردة والعقول النورانية . والمسلم التقليدى فى معرفته يرتبط بهذه المصطلحات الدخيلة ، أكثر مما يرتبط بتعبير القرآن الكريم .

ولم يكن لهذا التوفيق من أثر فى الصياغة والتعبير فحسب . بل كان له أثر سلبى كبير على تعقيد الفهم لما جاء فى القرآن . إذ وضع المسلمين فى متاهات جدلية عقيمة لا تنتهى إلا إلى التعقيد وعدم الخروج بحل واضح لأى مشكل .. كما أضعف من حرارة إيمانهم بالقرآن ومن دفعهم إلى العمل به فى غير اختلاف وانشقاق .. وفى غير تبريرات عقيمة ، تحول دون كشف الواقع والسيطرة عليه .

وكتاب « الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى » [١٠] يوضح : تفاهة الفكر الدخيل .. ووثنيته .. وآثاره السيئة على الإيمان بالإسلام .

* * *

● **التحديات الفكرية والعقائد للقرآن فى الحاضر :**

.. كان وضع المسلمين فيما مضى ينطوى على سعة فى دائرة الإيمان بالإسلام .. وعلى عمق فى الارتباط به ، رغم الخلافات السياسية التى مزقتهم إلى مجموعات تختلف حول « الإمامة » العليا ، .. وفى وضع شروط خاصة بها تعبر عن الفجوة بين المصالح الخاصة بينهم : ورغم تفرقهم إلى

---

(١٠) للمؤلف .

طوائف .. ومذاهب ، وتفاوتهم فى مدى شد الإسلام إلى ما تراه كل طائفة .. وإلى ما يصدر عنه كل مذهب من رأى .

إذ العوامل التى مهدت لوضع المسلمين اليوم فى حاضرهم كانت عوامل قاسية فى اقتلاع جذور الإيمان بالإسلام من مجتمعاتهم .. ومن محيط حياتهم .. ومن معاملاتهم .. ومن قضائهم .. ومن توجيههم .. ومن سلوكهم .

.. كان المسلمون منقسمين قبل اليوم . ولكن انقسامهم لم يصل إلى نسيان المسئولية الجماعية التى توجب التعاطف والتضامن فيما بينهم .. ولم يصل كذلك إلى اللامبالاة التى وصل إليها أمر المسلمين اليوم فى صلات مجتمعاتهم : بعضها ببعض .

.. لم يكتف الاستعمار الأجنبى فى الحاضر بوضع فواصل غير طبيعية ، عندما قسم المسلمين إلى مجتمعات . ودول .. وسلطنات . بل وضع الأساس فى التقسيم : الإمكانيات الاقتصادية ، والبشرية التى يريد أن يستنزفها فى شره ، وفى غير اعتبار بشرى لما يستخدمه منها فى أرض المسلمين وبلادهم .. كما راعى فى هذا التقسيم : الاتفاق والتراضى بين المستعمرين العديدين على توزيع هذه الإمكانيات بينهم ، كما اتفقوا جميعا ــ على تعددهم ــ على أسلوب العمل لاستغلال هذه الإمكانيات .. إلى أقصى مستوى فيها وهو إضعاف الإيمان بالإسلام بين المسلمين ، بإبعادهم عن رؤية إيجابية فى الحياة البشرية : إن بالسعى والعمل الجدى .. وإن بالترابط والتضامن فيما بينهم فى السراء ، والضراء .

* * *

● تحديات الفكر العلمانى :

.. وكان فى مقدمة الخطوات فى أسلوب العمل الاستعمارى : دفع « العلمانية » فى محيط الحياة الإسلامية . والعلمانية مصطلح يقصد به : أن فى الحياة التى يعيشها الإنسان فى مجتمعه جانبين . يتميز أحدهما عن الآخر . جانب دنيوى ، وهو جانب الحياة الاقتصادية .. والسياسية .. والطبيعية ، أى التى تتصل بالطبيعة من الأرض وما فيها .. وما تحتها .. وما فوقها ،

من إمكانيات ومصادر للثروة : معلومة أو مجهولة يمكن كشفها . وهـذا الجانب ليست له قدسـية . بل هو جانب ينطوى على دنس وشر . وهو للدولة . وجانب آخر قدسى وهو جانب الأسرة .. والوجود الإلهى على هذه الأرض ، وهو للكنيسة .

ومنطق هذا المفهوم للعلمانية يقضى بتوزيع الإنسان بين هذين الجانبين ، وإخضاعه إلى توجيهين أو إلى سلطتين مختلفتين ، لهما إلزام التوجيه عليه .

.. وهنا نشأت فى الفكر الأوربى فكرة الفصل بين الدين والدولة .. أو بين سلطة الدولة وهى السلطة الزمنية أو الدنيوية من جانب .. وسلطة الكنيسة ، وهى السلطة الدينية أو الإلهية من جانب آخر .

وبينما سلطة الدولة تناقش وتنقد .. إذا بسلطة الكنيسة لا تقبل غير الخضوع والطاعة . وهكذا : هناك دولتان ، أو سلطتان فى حياة الإنسان الأوربى فى المجتمع الواحد : سلطة الدولة .. وسلطة الكنيسة . الدولة فيما يسمى بالحيـاة المدنيـة وهى علاقة النـاس فى المجتمع بعضـهم ببعض . وحكمها هو الحكم المدنى .. أو العلمانى .. أو الدنيوى .. أو السياسى . والكنيسة فيما يسمى بالحياة الدينية ، وهى حياة الأسرة ، والعـلاقات الشخصية : فى الزواج ، وفى الأبناء ، وفى الوفاة ، وصلة الإنسـان بربه ومعبوده . وحكمها هو الحكم الدينى . أو الإلهى .. أو الكنسى . والحكومة الإلهية حكومة معصومة عن الخطأ . وقول البابا لا يرد . لأن الإله الذى حل فى الكنيسة .. يحل بدوره فيمن يوجه سلطتها العليا ، وهو البابا .

وقد قامت العلمانية بدور أسـاسى فى إضـعاف السـلوك الدينى فى المجتمعات الأوربية . وعلى وجه خاص عن طريق التربية والثقافة . ولولا يقظة الكنيسة فى المحافظة على سلطتها وأداء رسـالتها فى اختصـاصها . لتحولت المجتمعات الأوربية جميعها اليوم إلى مجتمعات إلحادية .

.. هذا النمط من التفكير العلمانى أقحم نفسه مع سلطة الاسـتعمار الأوربى فى المجتمعات الإسـلامية . وتسرب إلى التعليم .. والقضـاء .. والتشريع .. وأوجد له من بين المسـلمين دعاة يبشرون به ، بجانب سـلطة

أصحاب النفوذ الاستعمارى ، وفى خدمتهم . وأخذت الحياة فى المجتمع الإسلامى تتشعب إلى : تعليم دينى .. وتعليم مدنى .. وإلى سلطة قضائية شرعية .. وأخرى مدنية .. وإلى تشريع شرعى فى الأحوال الشخصية .. وآخر مدنى فى المسائل المدنية ، والجنائية ، والدستورية ، والعلاقات الدولية .

واشتد سند التفكير العلمانى فى المجتمعات الإسلامية ، وطغى بذلك ما يسمى بالجانب المدنى على الجانب الإسلامى . وانتهى الأمر فى عهود الحكم الوطنى بعد استقلال المجتمعات السياسية إلى إلغاء القضاء الشرعى .. والتضييق على فقه الأحوال الشخصية .. ومحاولة مساواة المرأة بالرجل فى الميراث ، إسهاما فيما يسمى : « حركة تحرير المرأة » التى تعد ظاهرة بارزة فى النصف الثانى من القرن العشرين ، كما اشتد النقد لمبادىء الإسلام . فى وسائل الإعلام المختلفة ، وفى الكتب .. والدوريات .

وأصبح الفصل بين الدين الذى هو الإسلام .. والدولة فى أى مجتمع إسلامى : حقيقة قائمة . بحجة أن مجال الدين ، وهو الإسلام ، يختلف عن مجال الدولة . وأصبح شعار : الدين لله .. والوطن للجميع : شعاراً سائداً فى المجتمعات الإسلامية ، بالأخص بعد استقلالها سياسيا مما يسمى بالاستعمار الأوربى .

فهل الإسلام يرى فى حياة الإنسان مجالين لسلطتين مختلفتين ؟ .

وهل الإسلام يرى دنس المادة وشرها حتى يمكن لهيئة غير دينية تتولى شئونها ؟ .

وهل الإسلام يرى فى المجتمع البشرى حكومة إلهية معصومة عن الخطأ ، تجب لها الطاعة والاستسلام فى غير شورى ، وفى غير إبداء رأى ؟ .

وهل كانت قيادة المجتمع على عهد الرسول عليه السلام بعيدة عن أى خطأ ؟ ولماذا كان عتاب الله لرسوله فيما اتجه إليه فى شأن أسرى بدر ، فى قول الله تعالى : **« ما كان لنبى ان يكون له اسرى حتى يثخن فى الأرض »**

تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » (١١) ..

إن فكرة العلمانية تواجه إذن الإسلام فى مجتمعه ، وتحمله على قبول ما قبلت به الكنيسة فى المجتمع الأوربى . والعلمانيون فى المجتمعات الإسلامية يفرضون عليها قبولها فى التخطيط والتطبيق . والساسة فى المجتمعات الإسلامية يحاولون أن لا يسمعوا كلمة : الإسلام ، فى شأن نظام حكم هذه المجتمعات .

والإسلام بمواجهة العلمانية له .. وبدفعها إياه على هذا النحو : يتخلف رويداً .. رويداً عن الظهور فى مجتمعاته ، وبين شعوبه . إذن لابد أن يكون هناك توضيح إسلامى لوضع الإسلام فى حياة المسلم ــ وفى نظرته لطبيعة الإنسان .. وفى تقديره للمادة .. وفى مدى توجيهه فى تنسيق مع طبيعته الإنسانية ، وفى ملاءمة مع متع الحياة المادية . لابد من توضيح إسلامى [١٢] لهذا .. ولغيره ، يأخذ طابع الدفاع ، ولون علم الكلام الإسلامى . وعندئذ يكون مثل هذا التوضيح امتداداً لعلم الكلام عندما واجه تفكير الغرب والشرق فى دينه .. وفلسفته .

* * *

● **تحديات الفكر الاستشراقى :**

ثمة رافد آخر من الفكر الدخيل فى حاضر المجتمعات الإسلامية ، يساعد العلمانية على يسر القبول ، والتمكن فى توجيه المسلمين . وهو تحد آخر للإسلام . وهذا الرافد الآخر هو الفكر الاستشراقى . أى اتجاه المستشرقين فى بحث التراث الإسلامى والمبادىء الإسلامية . وهو فكر عمل الاستعمار على قيامه .. ونشره .. وتوطينه فى البلاد الإسلامية . نعم قد تكون هناك بحوث للمستشرقين تستحق الاهتمام والإعجاب . ولكنها قليلة بالنسبة لبحوثهم الأخرى التى تستهدف تشكيك المسلمين فى دينهم ، وتحاول أن تخلخل الصلة بين المسلمين وإسلامهم .

---

(١١) الأنفال : ٦٧ ، ٦٨

(١٢) من الكتب التى تعالج هذا الموضوع : للمؤلف : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .. ورسالة : العلمانية والاسلام : بين الفكر والتطبيق .

.. هى بحوث فيها : التجرد فى البحث ، وسلوك المنهج العلمى فيها . ولكن معظمها تكرار لاتهامات الماديين المشركين على عهد القرآن :

.. فيدعون مثلا : أن القرآن ليس وحيا من الله . وأن الرسول عليه السلام ألفه . وقد أثار مشركو مكة هذا الادعاء ، فيما يحكيه الله سبحانه وتعالى : « **أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين** » (١٣) ..

وقد نقل عنهم هذا الادعاء كتاب الشعر الجاهلى فيما يرويه من أن الرسول صلوات الله عليه : عاش فى فترة مزدهرة من الحضارة الإنسانية فى شبه الجزيرة العربية ، وهى حضارة سياسية ، واقتصادية ، وتأثر بها . وكان القرآن تعبيراً عما تأثر به منها .

.. ويدعون أيضاً : أن الرسول عليه الصلاة والسلام نقل ما فى قرآنه عن أهل الكتاب ، على نحو ما ادعى المشركون الماديون فى مواجهته صلى الله عليه وسلم ، فيما يقصه قول الله تعالى : « **ولقد نعلم أنهم يقولون انما يعلمه بشر ، لسان الذى يلحدون** (أى يحيدون ويعدلون عنه) **اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين** » (١٤) ..

.. وقوله : « **وقال الذين كفروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً** » (١٥) ..

.. وقوله : « **أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون** » (١٦) ..

وكما اتهمه هؤلاء المكيون الماديون : بأنه ــ عليه السلام ــ فى تعلمه من الآخرين لم يكن طبيعياً فى تفكيره .. بل كان مجنوناً وغير مستقر ذهنيا : فيما يستمع ، ويتعلم .. كذلك عندما ينسب المستشرقون إليه صلى الله عليه وسلم : أنه تعلم من أهل الكتاب : يقولون أيضاً : إنه أساء استخدام ما تلقنه .. ولم يستطع أن يستوعبه بعقله .. وبالتالى كان مشوشاً فى التعبير عنه فى قرآنه . ويضربون المثل على ذلك بمسألتين اختلف فيهما القرآن عن مسيحية الكنيسة :

---

(١٣) الطور : ٣٣ ، ٣٤
(١٤) النحل : ١٠٣
(١٥) الفرقان : ٤
(١٦) الدخان : ١٣ ، ١٤

المسألة الأولى : مسألة التثليث .. والوحدة فى الألوهية . فيقولون : إن محمداً لم يستطع فهم التثليث ، ولذا قاومه وندد به . ودعا إلى وحدة الألوهية ، على نحو ما يقول الله تعالى : « **لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد ، وان لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم** » (١٧) ..

المسألة الثانية : ألوهية المسيح . فيدعون كذلك : أنه (أى محمداً عليه السلام) لم يرق إلى مستوى الرسالة ، وإلى مستوى المسيح . ولذا لم يفهم ألوهيته . فبقاؤه فى المستوى البشرى حال دون تقبله الوضع الصحيح لعيسى . وقد ظهر غضبه على تأليه المسيح فيما يعبر عنه قرآنه فى قول الله تعالى : « **لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم** » (١٨) ..

ثم فى قوله : « **ما المسيح ابن مريم الا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر انى يؤفكون** » (١٩) ..

اختلاف القرآن عن مسيحية الكنيسة فى هاتين المسألتين ــ وفى غيرهما ــ لم يكن لعامل إنسانى لدى الرسول عليه السلام .. أى لم يكن لقصور أو تشويش فى تفكيره ، كما يدعى هؤلاء المستشرقون . وإنما جزء رئيسى فى رسالة القرآن . يتعلق بتصحيح الأخطاء والتحريف الذى وجد عند بنى إسرائيل : من يهود ومسيحيين ، على السواء . ويشير إلى رسالة القرآن من أجل هذا التصحيح قول الله تعالى : « **ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون . وانه لهدى ورحمة للمؤمنين . ان ربك يقضى بينهم بحكمه ، وهو العزيز العليم . فتوكل على الله ، انك على الحق المبين** » (٢٠) .. كما يشير القرآن إلى أخطاء التحريف للكتاب الذى جاء به موسى من جانب بنى إسرائيل فى قول الله تعالى : « **وما قدروا الله حق قدره** (والخطاب هنا للمكيين المادين) **اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً** » (٢١) .

---

(١٧) المائدة : ٧٣
(١٨) المائدة : ٧٢
(١٩) المائدة : ٧٥
(٢٠) النمل : ٧٦ ــ ٧٩
(٢١) الأنعام : ٩١

(والخطاب الآن لبنى إسرائيل . أى أن كتاب موسى لم يبق ــ كما كان ــ نوراً وهدى للناس ، بسبب إظهار بعضه وإخفاء الكثير منه . ولذا كان هنا مكان لرسالة القرآن ، التى هى تصديق لكتاب موسى فى أصله) .. والآية إذ جاءت الآن لتأنيب الماديين المكيين على اتهامهم الفج ، فإنها أيضا فى الوقت نفسه أبرزت السبب فى نزول القرآن ، بعد التوراة ، وهو تحريفهـا الذى باشره علماء **بنى إسرائيل** .

.. ثم يتلقف المستشرقون ــ زيادة على تكرارهم لتهـم الماديين المكيين بالنسبة للقرآن .. أو بالنسبة للرسول عليه السلام ــ أخطاء فى أفهام بعض المسلمين للقرآن .. أو يحاولون هم استنتاج ما يبعد استنتاجه من ظواهر الآيات القرآنية .

.. فيتلقفون مسألة : « النسخ » فى القرآن مثلا . ويدعون أن القرآن مضطرب فيما يقوله ، لأن محمداً يقع تحت تأثيرات مختلفة ومتضـاربة . ويذكرون كثيراً من الأمثلة التى يوردها هذا البعض من علمـاء المسـلمين للاستشهاد على نسخ القرآن : بعضه لبعض .

ولو عرف هذا البعض من العلماء ــ وكذلك لو أخلص المستشرقون فى نواياهم فى عرض الإسلام ــ أن القسم المدنى من القرآن نزل منجما ، حسب تطور مجتمع المدينة وظهور مشاكله واحتياجاته : لأدركوا جميعا : أن تكوين المجتمع لا يتم نقله من وضع .. إلى آخر على النقيض منه : دفعة واحدة .. وأن التطور النفسى عامل رئيسى فى تماسكه وفى بقاء أفراده فى نطاق هدفه المعين . والتطور النفسى لا يقبل الفجأة .. ولا يلتئم مع التحديات النهائية فى أول طـريق التكوين . وجاء التعبير عن نزول القـرآن منجـما فى قول الله تعالى : **« وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا »** (٢٢) ..

وكذلك لو عرف هذا البعض : أن النسخ ليس فى رسالة أى رسول . وإنما هو بين رسالات الرسل ، ككل . كالذى وقع بين رسالة إبراهيم ..

---

(٢٢) الفرقان : ٣٢

وموسى .. ومحمد ، عليهم السلام فى حل العمل يوم السبت ، وفى تحريمه . على نحو ما يصوره القرآن فى قول الله تعالى : « **ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين . انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه** » (أى إنما حرم العمل يوم السبت على بنى إسرائيل لأنهم هم الذين عصوا الله فيما أمرهم به فى قوله : « **ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت** » (٢٣) (أى لا تتجاوزوا الأمر فى شأنه ، وهو عدم العمل فيه) **وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** » (٢٤) .. فآمر الرسول محمد عليه السلام باتباع إبراهيم ــ دون موسى ــ فى حل العمل يوم السبت . وإذن ما جاء فى القرآن هو نسخ : لما جاء فى التوراة فى هذا الشأن ، وعودة بالبشرية إلى ما كان عليه إبراهيم .

ولذا كان من أسباب رفض القرآن من جانب بنى إسرائيل هو نسخه لبعض ما جاء فى التوراة . ويشير إلى ذلك قول الله تعالى : « **واذا بدلنا آية مكان آية** (أى أتينا فى القرآن بآية تدل على حكم .. بدل آية فى التوراة تدل على حكم مغاير له) **والله أعلم بما ينزل قالوا** (أى قال ذلك أهل الكتاب من بنى إسرائيل ، لأنهم هم الذين لهم كتاب منزل ينطوى على آيات الأحكام ، وليس المشركون المكيون) **انما أنت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون . قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين** » (٢٥) ..

.. ويحاولون إبراز ما يسمى بالتضارب فيما يريده القرآن ، أو فيما يأمر به وينهى عنه ويعرضون للجبر .. والاختيار ، ويذكرون الآيات التى يؤخذ من ظاهرها : وجود الجبر وعدم المشيئة ، بالنسبة للهداية على الأخص .. والآيات الأخرى التى تترك أمر الكفر والهداية إلى الإنسان . ويشيرون إلى مذهب الجبريين .. وإلى المذهب الآخر ، وهو مذهب المعتزلة فى اختيار الإنسان . ولكنهم لا يشيرون إطلاقا إلى الدوافع السياسية فى أمور الخلافة الإسلامية التى دفعت إلى إعلان مذهب الجبر فى عهد الأمويين .. وإلى

---

(٢٣) النساء : ١٥٤ (٢٤) النحل : ١٢٣ ، ١٢٤

(٢٥) النحل : ١٠١ ، ١٠٢

مذهب الاختيار على أيام حكم العباسيين . والسياسة فى استخدامها الدين لا تتركه وحده يقول ما يريده . وإنما تحمله ـ على يد نفر ممن ينتسبون إليه ـ على قول معين . هو القول الذى تحتاجه السياسة فى وجه خصومها فى الحكم ، تأييداً لاتجاهها فيه . ولكنهم يبتغون الفتنة .. ويبتغون تأويله . كما صنع أسلافهم من أهل الكتاب ذلك ، وحكاه الله فى قوله تعالى : **« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا ، وما يذكر الا أولوا الألباب »** (٢٦) ..

ولو اتضح لهؤلاء ولغيرهم أن الجانب النفسى فى القرآن بالنسبة للرسول عليه السلام كان عنصراً هاما فى نجاح الدعوة به : لترددوا كثيراً فيما يتهمونه به . فعندما يقول الله لرسوله الكريم صلوات الله عليه : **« انك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين »** (٢٧) .. يقول له ذلك ـ ناسبا الهداية إلى الله وحده ـ ليطمئنه نفسيا بأن عليه صلى الله عليه وسلم ـ فقط : مباشرة الدعوة بين أقربائه ، ولكنه لا يتحمل نتائجها عنهم . فسبحانه هو الذى يقول له كذلك فى هذا الشأن : **« ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون »** (٢٨) .. دفعا لما قد يجول بنفسه من خواطر الأسف ، بسبب عدم نجاح دعوته بين أقربائه .. وتشجيعا له على السير نحو الأمام فى رسالته .

أما المسئولية الشخصية عن الإيمان ، والكفر .. وعن العمل الصالح ، والسيء ، فهى حقيقة بارزة فى القرآن . لأنها قائمة على الحرية الكاملة فى قبول الإيمان بالإسلام ، أو فى رفضه : **« وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »** (٢٩) ..

« ومن كفر فعليه كفره ، ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون » (٣٠) .. ولا يمكن أن يكون الإنسان مسئولا عن كفره إلا إذا كان ذا مشيئة فيه .

وآيات القرآن التى تظهر نسبة الإيمان والكفر إلى الله تستهدف هدفين :

---

(٢٦) آل عمران : ٧
(٢٧) القصص : ٥٦
(٢٨) النحل : ١٢٧
(٢٩) الكهف : ٢٩
(٣٠) الروم : ٤٤

الهدف الأول : أن مشيئة الله تعين الإنسان على الهداية ، إذا أقبل عليها أو عندما يقبل عليها ، ولا تعينه عليها إذا أعرض عنها : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون** » (٣١) ..

الهدف الثانى : إحاطة الداعى والدعوة بجو النجاح وعدم الخذلان . وذلك بإبعاد : أن يكون الإيمان .. أو عدم الإيمان من مستتبعات النشاط فى الدعوة والداعى إليها . وهنا ليس على الداعى إلا أن يقوم بواجبه فى شرح الدعوة ، دون انتظار لما تسفر عنها نتائجها . ويكل النتيجة لله وحده ، ويعتمد عليه فى النجاح أخيرا :« **فلذلك فادع ، واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا ، واليه المصير** » (٣٢) ..

.. كما يتلقف هؤلاء المستشرقون ما قد يوجد فى بعض كتب المتأخرين فى الفقه من استنتاجات افتراضية ، ربما لا تقع فى الحياة العملية للإنسان . ولكن يفترض الفقيه ــ وهو منعزل عن أحداث الحياة .. ومستغرق فى خيال التصور ــ وقوعها ، ويدخلها فى دائرة استنتاج الأحكام الفقهية ، كما تذكر بعض كتب الفقه مثلا : الأحكام التى تترتب على زواج إنس بجنية .. أو وزاج جن بإنسية : فى الطلاق .. وفى الميراث ..وفى النسب ومستقبل الأولاد . وكما تذكر هذه الكتب أيضاً : الحكم الشرعى : من بطلان .. أو كراهية ، فى خطيب يصعد المنبر يوم الجمعة .. أو يؤم المصلين فى صلاتها ، وهو يحمل قربة من الماء ..

وفى سرد هؤلاء المستشرقين لمثل هذه الأحكام الافتراضية فى الفقه يقدرون : أن يشيروا إلى الانعزالية أو البعد فى أحكام الفقه الإسلامى عن واقع الحياة .. أو عن مدى إهماله فى معالجة القضايا والمشاكل التى تعترض حياة المسلمين فى اختلاطهم بحضارات أخرى .. وفى عهود يتقدم فيها العلم والتطبيق الصناعى ، ويصل فيها الإنسان إلى مستوى السيطرة على الأجواء .

---

(٣١) الأنعام : ١٢٥ (٣٢) الشورى : ١٥

بعد أن سيطر على الأرض والبحار .. يقصدون : إما إلى إبراز جمود الفكر الإسلامى أو تخلفه .. أو عدم صلاحية الشريعة الإسلامية لدفع المسلمين نحو التطور .. والخروج من الركود الذى يعيشون فيه .

وفى جامعة هارفارد بالولايات المتحدة الأمريكية كان يقوم فى العشر سنوات الأخيرة أستاذ بريطانى ــ وهو من كبار المستشرقين . وأكثرهم اعتدالا ، وهو الأستاذ « جب » بتدريس هذا النوع من الفقه الافتراضى ، بدعوة من الجامعة ، وعلى نفقة اعتماد مالى كبير لتدريس حضارة الشرق الأدنى وحركاته الإسلامية المعاصرة ، للطلاب الأمريكيين .. والوافدين من أنحاء العالم .

ومثل هذا العمل للمستشرقين هو تحد آخر للإسلام فى وقتنا المعاصر ، يجب أن يواجه بتتبع وبيان ما فيه من فساد .. ومغالطة .. وخلط .. وتشويش . على نحو ما صنع المرحوم الإمام محمد عبده فى رده على المستشرق الفرنسى : « رينان » فى كتابه : « الإسلام والنصرانية » (٣٣) . ومن الأسف أن عمل هؤلاء المستشرقين تعدد .. وتنوع .. واتسع إلى درجة أنه يصعب على القلة المفكرة من علماء المسلمين أن تواجهه . ثم فى الوقت نفسه له أثر سلبى .. ونافذ .. ومستمر ، على المثقفين المسلمين ، لأن تنظيمهم لبعض المراجع الإسلامية ، ومنهجهم فى التبويب ، والترتيب ، للفكر ، أو للكتب : من شأنه أن ييسر الرجوع إلى المفاهيم الإسلامية ، وإن كانت تنطوى على تحريف ، أو إساءة متعمدة فى شرحها . فدائرة المعارف الإسلامية ــ مع ما فيها من أغلاط وتحريف متعمد ــ تدفع إلى من يبحث عن بعض المراجع الإسلامية المعاصرة .. إلى الرجوع إليها . وقلما ــ من تعود الرجوع إليها ــ يكون على علم بالمفاهيم الإسلامية من مصادرها ، وبالأخص من القرآن الكريم .

* * *

تحديات الفكر الطبيعى :

وبجانب ما وفد من الغرب إلى المجتمعات الإسلامية فى ظل الاستعمار

---

(٣٣) وعلى نحو ما جاء فى تقييد ادعاءات المستشرقين فى كتاب : الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

من تحديات العلمانية .. والاستشراق : وفد أيضاً إلى هذه المجتمعات تحديات الفكر الطبيعى . وهو الفكر الذى يرى علل الأشياء فى ذواتها .. ويخضع أحداثها إلى استتباع الأسباب الطبيعية لمسبباتها . والفكر الطبيعى يعترف بالتجربة المادية وحدها كوسيلة للعلم . ومن أجل ذلك ينكر أى مصدر آخر له ، كغيب السماء وما يأتى به الوحى منه .

.. وهنا وجد تحدى : ما يسمى بمشكلة العلم والدين . فحسب مقياس العلم فى اتجاه الفكر الطبيعى يعتبر الدين أسطورة .. أو خرافة غيبية . أى لا يعتمد فيما يقول على تجربة الحس ، ولا على وسائل الاختبار العلمية ، والملاحظة لمرور التجربة فى مراحلها العديدة . وفعلا يتحدث الطبيعيون عن نوعين من العلم : أحدهما تجربى ، وهو العلم الطبيعى وهذا هو النوع المقبول . وثانيهما غيبى ، وهو الدين . وهو لا يعتد به ، كما لا يعتمد عليه فى بناء المجتمع وسلوكه . وإذن يردد الطبيعيون ما كان يردده المشركون الماديون على عهد الرسالة ، على الرسالة ، على نحو ما يقص قول الله تعالى : **« ومنهم من يستمع اليك ، وجعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، حتى اذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا ان هذا الا أساطير الأولين »** (٣٤) ..

.. ومحمد إقبال ــ فى كتابه « إعادة بناء الفكر الإسلامى » .. يرى فى قصر الطبيعيين : العلم ، على ما تأتى به نتائج التجربة المادية وحدها .. أى على ما يأتى به الحس وحده : نوعا من القصور فى تحديد وسائل العلم .. أو نوعا من التحيز فى اختيار الحس وحده ، كوسيلة يؤخذ بها ويعتمد عليها . فما يأتى به الدين كذلك من علم ، فإيمان به : هو تجربة كذلك . ولكنها تجربة نفسية ، تخضع للممارسة الداخلية للإنسان . أى تخضع لجهاد النفس وترويضها . فكلما جاهد الإنسان شهوات نفسه ووقف فى سبيل هواها : كلما زاد إدراكه وضوحا وعمقا للطريق السوى فى الحياة .. وكلما زاد إيمانه قوة بالله وبرسالته . ونهاية هذه التجربة النفسية تتجلى فى الصفاء النفسى .. وفى الإلهام البعيد عن التأثر بمتع الحياة .. بتجلى فى مستوى معين

---

(٣٤) الأنعام : ٢٥

من الزهد أو التصوف .. وهو مستوى التجرد فى الحكم ، والغنى النفسى بالقناعة عن ماديات الحياة .

والرؤية العلمية التى يراها صاحب هذه التجربة أدخل إذن فى معنى : العلم واليقين . لأن تجربة الحس لا تمر وحدها إلى نتائجها . وإنما تصحب هذه التجربة ملاحظة الملاحظ لها .. أى ملاحظة إنسان يرقبها ويتتبع خطواتها . وهذا الإنسان فى مراقبته إياها خاضع للغفلة .. وللتأثر بالجو الذى هو فيه .. وللتقلب فى المزاج والصحة إلى حال .. ونقيضه ، أثناء قيامه بالملاحظة . والأخطاء العلمية هى أخطاء : إما فى ذات التجربة .. أو فى ملاحظتها من الإنسان . والتطور العلمى ما هو إلا طريق يقوم على تصحيح الأخطاء التى تقع فى التجارب المادية أو الحسية ، والتوصل إلى نتائج جديدة قد تعدل غداً ، أيضا . ومع ذلك لا يتلافى التطور العلمى جميع الأخطاء . ويستحيل عليه أن يتلافاها . لأنها من الإنسان المعرض للشىء .. ونقيضه : فى حياته ، وفى ممارسته للمراقبة والملاحظة .

والتطور العلمى ينطوى فى ذاته على اعتراف بعدم تكامل العلم .. أو بعدم وصوله إلى اليقين النهائى .

« وإقبال » فى توضيحه للتجربة الدينية ـ كوسيلة أخرى بجانب التجربة المادية ـ أخذ من الفيلسوف الألمانى « هيجل » .. طريقه فى الوصول إلى وحدة الألوهية .. وكيفية وجود العالم عنه .. واتصاله به .. وهو طريق الدعوة .. ومقابل الدعوة .. والجامع بين الدعوة ومقابل الدعوة . أو هو طريق استخدام النقيض فى مجال « الفكرة » . وقد استخدمه « كارل ماركس » فيما بعد : فى مجال المادة أو الاقتصاد ، ليصل منه إلى سيادة البروليتاريا فى حكومة عالمية .

.. وفى الوقت الذى ينكر فيه الطبيعيون القيمة العلمية للدين ـ لأنه كما يقولون : علم ـ غيبى ، وليس بحسى ـ يجعلون علم الاجتماع فى مقدمة العلوم اليقينية . والمجتمع الذى يبحث ، وتحدد قوانينه ، وتوصف بأنها قوانين علمية ، ويتكون منها ما يسمى بعلم الاجتماع : ليس تجربة مادية خالصة . لأن الإنسان الفرد فى المجتمع ، والذى تقع عليه التجربة فى علاقته

بغيره ، والذى قال فيه هؤلاء الطبيعيون : إنه وحدة مادية فى ظاهره وباطنه . هذا الإنسان ليس « موضوعا » للفعل والانفعال فحسب .. أى ليس موضوعا قابلا فقط ، وليست له فاعلية . بل هو وحدة تتفاعل مع عالمها الذى توجد فيه . فهى كما تقبل الفعل من الغير .. تعطى الفعل للغير . وهذا معناه : أن المجتمع لا يساوق أية كتلة مادية فى الطبيعة ، تلاحظ عليها التجربة .. وتقنن المراحل التى تمر بها هذه التجربة . لأن الكتل المادية الأخرى : كتل ميتة . والإنسان إن كان كتلة من المادة ، ففيه الحياة . والحياة فى الإنسان هى حركة تصدر .. وحركة أخرى تستقبل .

وأصحاب الاتجاه الطبيعى إذن ليسوا أصحاب تجرد فى الحكم . بل حزبية النفرة من الدين ، والرغبة فى التخلص من سلطة الكنيسة : حملاهما على الفصل بين العلم .. والدين . كما حملا رجال السياسة على الفصل : بين الدين .. والدولة .

والاتجاه الطبيعى فى التفكير هو من التحديات المعاصرة التى لم تلق الآن اهتماما فى الفكر الإسلامى المعاصر [٣٥] من أجل توضيح الإسلام ومبادئه على أساس الوحى الإلهى به . ومحاولة إقبال فى توضيح أن الدين تجربة علمية من نوع آخر ، رغم أنها محاولة ناجحة إلا أنها تقصر عن أن تواجه هذا السيل من تفكير الطبيعيين ، لإبعاد الإسلام عن التوجيه ، وبالأخص عن توجيه الشباب المسلم المعاصر .

* * *

● **تحديات الفكر المادى التاريخى :**

والفكر المادى التاريخى هو الفكر الذى يجعل كل ظواهر الوجود ـ وبالأخص تطورات المجتمع البشرى ـ من المادة . أى من الاقتصاد وحده . فالاقتصاد هو العامل الوحيد المحرك للوجود .. وهو صاحب الخالقية والفعل فى تغيير المجتمعات الإنسانية . والمجتمعات الإنسانية ذاتها مرآة تعكس آثار

---

(٣٥) كتاب الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى محاولة فكرية اخرى فى دفع التحدى الطبيعى للاسلام .

الأوضاع الاقتصادية فيها . والمجتمعات الإنسانية بدورها ذات التأثير على الفرد : فى ذاته .. وفى علاقته بالآخرين .

ويلتمس هذا الفكر من بعض أحداث التاريخ الشواهد على ما يدعى . ويستعين بفكرة النقيض عند هيجل : على توضيح تحول المجتمع من وضع معين .. إلى وضع آخر مقابل له . كتحول المجتمع من وضع الإقطاع فى الأراضى والعبيد .. إلى وضع نظام رأس المال فى الصناعة .. ثم إلى وضع البروليتاريا فى الشيوعية الدولية .

ويقوم هذا الفكر على أساس الإلحاد العلمى ، والعداوة التى لا تقبل المهادنة للدين . وقد عرف هذا الاتجاه فى القرن التاسع عشر باسم « السوشيالزم » ، أو الاشتراكية . ثم عرف بعد ذلك باسم الاتجاه الماركسى ، نسبة لليهودى « كارل ماركس » فى القرن التاسع عشر . وفى تطبيقه بعد ثورة أكتوبر الحمراء فى روسيا سنة ١٩١٧ عرف باسم الاتجاه ـ اللينينى . ويعرف فى بعض المجتمعات الإسلامية بأسماء أخرى كالاشتراكية العربية .. أو الناصرية ، أو اليسار العربى ، تستراً على ما يدعو إليه من تقويض الدين باسم الإلحاد العلمى .

ويعيد هذا الاتجاه فى موقفه من اتهام الدين : ما كان يتهم به القدامى من الماديين ـ كمشركى مكة ـ الإسلام : من أنه : كهانة .. وأسطورة .. وأضغاث أحلام .. وسحر .

فيحكى القرآن الكريم قول هؤلاء القدامى بشأن القرآن :

« وقالوا أساطير الأولين اكتتبها » (٣٦) ..

« بل قالوا أضغاث أحلام » (٣٧) ..

« ولئن قلت انكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين » (٣٨) ..

.. وتنفى القرآن دعواهم إزاء الرسول عليه السلام : بأنه كاهن فى قول الله تعالى : « **فذكر فما أنت بنعمة ربك** (وهى القرآن) **بكاهن ولا مجنون » (٣٩) ..**

---

(٣٦) الفرقان : ٥
(٣٧) الانبياء : ٥
(٣٨) هود : ٧
(٣٩) الطور : ٢٩

.. ولكن هذا الاتجـاه المادى التاريخى يعيد هـذا الموقف فى تعبيرات أخرى . فيصف الدين مثلا : بأنه أفيون الشعوب . أى مخدر . كما يصفه بالأسطورة .. وبأنه غيبى لا يحمل طابع المعرفة الصحيحة . والقائمون على تنفيذ هذا الاتجاه فى مجتمعاتهم يصفون كل من ينقد نظام الحكم القائم عليه : بأنه مجنون ، ويحتجزونه فى أمكنة المجانين . وقد حكم المكيون على رسول الله عليه السلام بسبب دعوته إلى القرآن : بأنه مجنون :

« **وقالوا يا ايها الذى نزل عليه الذكر** (أى القرآن ـ ويعنون محمداً عليه السلام ـ) **انك لمجنـــون . لو ما تأتينـــا بالملائـــكة ان كنت من الصادقين** » (٤٠) .

والقرآن كرسالة لله هو فى الدرجة الأولى : نقد لأوضاع المجتمع قبل الرسالة .. وفى الوقت نفسه : بناء لمجتمع إنسانى جديد .. بدلا من مجتمع الوثنية المادية .

.. وجمال الدين الأفغانى فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر فى رسـالة « الرد على الدهريين » : كما تكفل بالرد على أصحاب الاتجـاه الطبيعى فى الفكر .. تكفل أيضا بالرد على هذا الاتجاه الماركسى (٤١) الذى كان معروفا إذ ذاك : بالسوشيالزم .. أو بالاشتراكية .

.. وفى رد جمال الدين الأفغانى على أصحاب هذا الاتجاه تناول ثلاث نقاط :

الأولى : من هم الاشتراكيون . والشيوعيون ، فى الغرب ، والشرق ؟ .

الثانية : ما بين : مزدك .. وماركس .

الثالثة : أوجه المشاركة فى الحديث .. والقديم .

ففى النقطة الأولى : يقول :

« هذه الطوائف تتفق فى سـلوك الطريقة الدهرية (وهى : الإلتحـاد

---

(٤٠) الحجر : ٦

(٤١) وقد وردت فى صورة مستقلة رسالة « تهافت الفكر المادى التاريخى ، بين النظـر والتطبيق » من مؤلفاتنا ـ على هذا الاتجاه .

بالدين .. والإيمان بالطبيعة وحدها) . زينوا ظواهرهم بدعوى : أنهم سند الضعفاء .. والمطالبون بحقوق المساكين والفقراء .

« وكل طائفة منها ، وإن لونت وجه مقصدها بما يوهم مخالفته لمقصد الأخرى ، إلا أن غاية ما يطلبون : إنما هو رفع الامتيازات البشرية كافة .. وإباحة الكل : للكل واشتراك الكل : فى الكل .

« وكم سفكوا من دماء .. وكم هدموا من بناء .. وكم خربوا من عمران .. وكم أثاروا من فتن .. وكم أنهروا من فساد . كل ذلك : سعيا فى الوصول إلى هذه المطالب الخبيثة (الإباحة .. والاشتراك) . وجميعهم على اتفاق : فى أن جميع المشتهيات الموجودة على سطح الأرض منحة من الطبيعة .. وفيض من فيوضها . والأحياء فى التمتع بها سواء . واختصاص فرد من الإنسان بشىء منها دون سائر الأفراد (يشير إلى الملكية الخاصة) بدعة فى شرع الطبيعة السيئة ، يجب محوها والإراحة منها [٤٢] .

● **موقفهم من الدين .. والملكية :**

ومن مزاعمهم : أن الدين .. والملك عقبتان عظيمتان ، وسدان منيعان يعترضان بين أبناء الطبيعة ، ونشر شريعتها المقدسة : (الإباحة .. والاشتراك) . وليس من مانع أشد منهما . فإذن من الواجب على طلاب الحق الطبيعى : أن ينقضوا هذين الأساسين ويبيدوا الملوك .. ورؤساء الأديان . ثم يعمدون إلى الملاك ، وأهل السعة فى الرزق . فإن دانوا لشرع الطبيعة فخرجوا عن الاختصاص (أى الملكية وتنازلوا عنها) فتلك .. وإلا أخذ بأعناقهم قتلا ، وبأكظامهم خنقا ، حتى يعتبر بهم من يكون أمثالهم . فلا يلوون رؤسهم كبراً على الشريعة المقدسة (وهى شريعة الطبيعة) ولا تزور أعناقهم عصيانا لأحكامها [٤٣] .

● **منافذ تسربهم :**

« نظر أبناء هذه الطوائف فى وجوه الوسائل لبث أفكارهم .. والإفضاء

---

(٤٢) كتاب الرد على الدهريين ص ٩٠ ، الناشر دار الكرنك ـ القاهرة ـ عمارة رمسيس ـ ميدان رمسيس باب الحديد : تحقيق الشيخ محمود أبو رية .

(٤٣) المصدر السابق ص ٩١ .

بما فى أوهامهم : إلى قلوب العامة (الجماهير) فلم يجدوا وسيلة أنجح فى زرع بزور الفساد فى النفوس : من وسيلة التعليم : إما بإنشاء المدارس ، تحت ستار نشر المعارف ، أو بالدخول فى سلك المعلمين فى مدارس غيرهم ، ليقرروا أصولهم فى أذهان الأطفال ، وهم فى طور السذاجة : فتنتقش بها مداركهم بالتدريج .

« فمن أولئك الدهريين : من همه بناء المدارس ، ودعوة الناس إليها . ومنهم متفرقون فى بلاد أوروبا يطلبون وظائف التعليم ، وينالون من ذلك طلبهم . وجميعهم يتعاونون على إذاعة خيالاتهم الباطلة . وبهذا كثرت أحزابهم .. ونمت شيعتهم فى أقطار الممالك الأوربية ، خصوصا فى مملكة الروسية .

« ولا جرم : أن هذه الطوائف إذا استفحل أمرها ، وقوى ساعدها على المجاهرة بأعمالها : فقد تكون سبباً فى انقراض النوع البشرى ، كما تقدم ذكره . أعاذنا الله شرور أقوالهم وأعمالهم » (٤٤) .

● **ومن هم فى الشرق :**

« أما منكرو الألوهية ، أعنى الدهريين (الاشتراكيين ـ الشيوعيين) الذين ظهروا فى لباس المهذبين ، ولونوا ظواهرهم بصبغ المحبة الوطنية (القومية) وزعموا أنفسهم طلاب خير الأمة .. فصاروا بذلك شركاء اللص ، ورفقاء القافلة ، ثم تجلوا فى أعين الأغبياء : حملة لأعلام العلم والمعرفة ، وبسطوا للخيانة بساطا جديدا . وتولاهم الغرور بما حفظوا من كلمات قليلة ناقصة ، غير تامة الإفادة ، مسروقة من أوهام المبطلين وفتلوا سبالهم ، كبراً وعلوا ، ولقبوا أنفسهم بالهادين .. والأدلاء ، وهم فى أطباق جهل ، وأوثاق غباوة ، وفى أهب من دنس الرذائل ، ومسوك من قذر الذمائم . فأولئك قوم ، قوى فيهم الظن : بأن العقل وثمرته من المعرفة ينحصران فى تبين وجوه الغدر ، وتعرف طرق الاختلاس . وإننى لفى خجل من ذكرهم ، يدافعنى الحياء عن رواية سيرهم ، وحكاية أعمالهم . فإن مقاصدهم من

---

(٤٤) المصدر السابق ص ٩١ ـ ٩٢

الدناءة بحيث لا تخرج عن جيوبهم : يسعون فى اقتلاع أساس أمتهم لشهوة بطونهم .. يحدون شفارهم لتقطيع روابط الالتئام بين بنى جنسهم ، لا يبتغون بذلك عوضا سوى حشو معدهم . وما أضيق مجال تفكيرهم !

.. إلى الآن لم يخط أحدهم خطوة خارج كرشه .. ولم يمد واحد منهم رجله لأبعد من فراشه . وليس فى وسع القلم أن يتحرك فى هذا المجال الضيق . غير أنه يمكن أن يقال إنهم : « بياجو » لغيرهم . أى سيئوا التقليد لهم » (٤٥) .

● **بين مزدك ـ وماركس :**

ويقول جمال الدين الأفغانى فى الصلة بين الاثنين : « انتحل مزدك لنفسه لقب : رافع الجور .. ورافع الظلم . وبنزعة من نزعاته قلع أصول السعادة من أرض الفارسيين .نسفها فى الهواء ، وبددها فى الأجواء ، فإنه بدأ تعاليمه بقوله : جميع القوانين .. والحدود والآداب (الأخلاق) التى وضعت بين الناس : قاضية بالجور ، مقررة للظلم . وكلها مبنى على الباطل . وإن الشريعة الدهرية المقدسة لم تنسخ حتى الآن . وقد بقيت مضمونة فى حرزها ، عند الحيوانات والبهائم ..

« أى عقل ، وأى فهم يصل إلى سر ما شرعته (الطبيعة) ؟ .

« وأى إدراك يحيط بمثل ما أحاط به ، وقد جعلت الطبيعة حق : المأكل ، والمشرب ، والبضاع .. مشاعاً بين الآكلين .. والشاربين .. والمباضعين ، بدون أدنى تخصيص ؟ . فما الحامل للإنسان على حرمان نفسه من بضاع : ابنته .. وأمه .. وأخته ؟ ثم تركهن لغيره يتمتع بهن : انقياداً لما يخيله له الوهم ، مما نسميه شريعة ، وأدباً (أخلاقا) ؟ .

« وأى حق يستند إليه من يدعى : ملكية خاصة فى مال يتصرف فيه دون سواه ، مع أنه شائع بينه وبين غيره ؟ .

« وأى وجه لمن يحجر على امرأة دخلت فى عقده ، ويحظر على الناس : نيلها ، وقد خلق الذكر للأنثى .. والأنثى للذكر ؟

---

(٤٥) المصدر السابق ص ٩١

« وماذا يوجد من العدل فى قانون يحكم بأن المال الشائع ـ إذا تناولته يد مغتصب بما يسمونه بيعا وشراء .. أو إرثا ـ يكون مختصا بذلك المغتصب ، ثم يحكم على الفقير المحروم ، إذا احتال لأخذ شيء من حقه والتمتع به : بأنه خائن .. أو غاصب ؟

« فإن كان هذا شأن تلك القوانين الجائرة ، فعلى الإنسان : أن يفك أغلالها من عنقه ، ويطرح كل قيد عقدته القوانين والشرائع .. والآداب ، التى لا واضع لها سوى : العقل الإنسانى الناقص ، وليرجع إلى سنة الطبيعة المقدسة ، ويقضى حق شهوته من اللذائذ التى أباحتها له : بأى وجه من الوجوه .. ومن أية الطرق ، ويأخذ فى ذلك مأخذ البهائم . وعليه أن يقاوم الغاصبين ، المتحكمين فى الحقوق : قسرا . أى المالكين للأموال .. والأبضاع ، فيخرجهم عن سوء فعالهم من الغصب .. والجور (أى من حق التملك) .

« فلما ذاعت هذه النزعات الخبيثة بين الأمة الفارسية : تهتك الحياء .. وفشا الغدر والخيانة .. وغلبت الدناءة والنذالة .. واستولى حكم الصفات البهيمية على نفوسهم .. وفسدت أخلاقهم .. ورذلت (أى وصلت إلى الخسة) طباعهم . نعم إن « أنو شروان » قتل مزدك ، وجماعة من شيعته . ولكنه لم يستطع محو هذه الأوهام الفاسدة ، بعد ما علقت بالعقول .. والتبست نفايتها بالأفكار . فكان علة فى ضعفهم ، حتى إذا هاجمهم العرب لم تكن إلا حملة واحدة فانهزموا . مع أن الروم ـ وهم أقران الفارسيين ـ ثبتوا فى مجالدة العرب ، ومقاتلتهم : أزمانا طويلة » (٤٦) .

* * *

● أوجه المشاركة فى الحديث .. والقديم :

ويقول جمال الدين كذلك : « وقد تبين : أن أول تعاليم « النيتشريين » أبطال هذين الاعتقادين :

« أولا : الاعتقاد بالله ..

---

(٤٦) المصدر السابق ص ٧٧ ـ ٧٩

« وثانيا : الاعتقاد بالحياة الأبدية (الحياة الأخروية) : وهما أساس كل دين .

« فهؤلاء القوم هم الساعون فى نسف بناء الإنسانية ، وتذريته فى ذيول السافيات . يطلبون ضعضعة أركان المدنية .. وفساد الأخلاق البشرية . ويقوضون بذلك ما رفعه العلم ، وشادته المعرفة . فيهلكون الأمم بإطفاء حرارة الغيرة ، وإخماد ريح الحمية ، هؤلاء جراثيم اللؤم والخيانة .. وأرومات الرذالة والدناءة .. وأحلاس الخسة والنذالة .. وأعلام الكذب والافتراء .. ودعاة الحيوانية العجماء . محبتهم كيد .. وصحبتهم صيد .. وتوددهم مكر .. ومواصلتهم غدر .. وصداقتهم خيانة .. ودعواهم للإنسانية حبالة .. ودعوتهم للعلوم شرك ومكيدة .

« يخونون الأمانة .. ولا يحفظون السر .. ويبيعون ألصق الناس بهم بأدنى مشتهياتهم .. عبيد البطون .. وأسراء الشهوات . لا يستنكفون من الدنية ، إذا أعقبتها عطية . ولا يخجلون من الفضيحة ، إذا تبعتها رضيخة (أى عطية قليلة) . لا علم عندهم بالوقار .. ولا إحساس لهم بالعار .. ولم يبلغهم عن شرف النفس خبر مخبر .. ولا وصل إليهم عن الهمة عبارة معبر ، أو تفسير مفسر . الابن فيهم لا يأمن أباه . والبنت لا أمان لها من كليهما » (٤٧) .

« نعم أى حد تقف دونه حركات طبع الطبيعين (وفى مقدمتهم : الاشتراكيون .. والشيوعيون) .

« قد يوجد بين الناس من تغره نعومة لمس هذه الأفاعى .. وتروقه رقطة جلودها ، وانتظام الرقش فيها ، فينخدع لهم بما يلتبس عليه من أمرهم ، فيصغى لزخرف قولهم ، ويظن : أن هؤلاء القوم من طلاب التمدن (التقدم) والأعوان على الإصلاح ، أو من الراغبين فى بث المعارف ، أو المنقبين عن الحقائق .. أو يتخيل : أن منهم من يكون عونا عند الضيق .. أو عونا فى الشدة .. أو مخزنا للأسرار عند الحاجة . فذلك المغرور بمظاهر

---

(٤٧) المصدر السابق ص ١٠٣ ، ١٠٤

هذه الطائفة لا محالة يبكى عليه .. ويضحك منه . فالضحك عجبا من غروره .. والبكاء حزنا على ضلاله » (٤٨) .

« .. ولما كان نظام الأكوان قد بنى على أساس الحكمة .. ونظام العالم الإنسانى جزء من النظام الكونى : ألهم الله نفوس البشر أن تفزع إلى مقاومة أولئكم المفسدين فى أى زمان ظهروا .. ومدافعة ما يعرض من شرهم ، كما ألهمهم الفزع من الحيوانات المفترسة ، والنفرة من الأغذية السامة ، وأنهض حفاظ النظام المدنى الحقيقى ــ وهو الدين ــ لبذل الجهد .. وإفراغ الوسع فى محو آثارهم ، واستئصال ما يغرسون فى تعاليمهم .

« لا جرم أن مزاج الإنسان الكبير (يقصد عموم النوع الإنسانى) بما أودع الله فيه من الشعور الفطرى ــ وهو أثر الحكمة الإلهية العامة ــ يمج هؤلاء الخونة ، ولا يحتمل وجودهم فى باطنه ، فيدفعهم ، كما تدفع الفضلات من المعدة ، أو الذنانة من المنخر ، أو النخامة من الصدر . لهذا تراهم وإن حلوا بعض منازل الأرض من زمان بعيد ، وأيدهم بعض النفوس الخبيثة من ذوى الشوكة لأغراض سافلة إلا أنهم لم يثبتوا ، ولم يتم لهم الأمر . بل كان عارض السوء منهم كسحاب الصيف ، كلما ظهر انقشع .

« والنظام الحقيقى لنوع الإنسان ــ وهو الدين ــ لم يزل قائما راسخا ، فى جميع الأجيال ، وعلى أى الأحوال . فلم تبق ريبة فى أن الدين هو السبب الفرد لسعادة الإنسان . فلو قام الدين على قواعد الأمر الإلهى الحق ، ولم يخالطه شىء من أباطيل من يزعمونه ولا يعرفونه : فلا ريب أنه يكون سببا فى السعادة التامة ، والنعيم الكامل ، ويذهب بمعتقديه فى جوار الكمال الصورى والمعنوى ، ويصعد بهم إلى ذروة الفضل الظاهرى والباطنى ، ويرفع أعلام المدنية لطلابها . بل يفيض على المتحدثين من ديم الكمال العقلى والنفسى ما يظفرهم بسعادة الدارين » (٤٩) .

* * *

(٤٨) المصدر السابق ص ١٠٤

(٤٩) المصدر السابق ص ١٠٥ ، ١٠٦

● **أوجه المشاركة فى الفكر :**

أولا : وهنا يلخص جمال الدين هذه الأوجه ، ويتحدث عنها فيقول : « لقد وضعوا مذاهبهم على بطلان الأديان كافة ، وعدها أوهاما باطلة ومجعولات وضعية ..

ثانيا : قالوا : إن الإنسان فى المنزلة كسائر الحيوانات ، وليس له من المزايا ما يرتفع به على البهائم ، بل هو أخس منها خلقة ، وأدنى فطرة . فسهلوا بذلك على الناس إتيان القبائح ، وهونوا عليهم اقتراف المنكرات ومهدوا لهم طرق البهيمية ، ورفعوا عنهم معايب العدوان .

ثالثا : ذهبوا إلى أنه لا حياة للإنسان بعد هذه الحياة ، وأنه لا يختلف عن النباتات الأرضية : تنبت فى الربيع مثلا ، وتيبس فى الصيف ، ثم تعود ترابا . والسعيد من يستوفى فى هذه الحياة : حظوظه من الشهوات البهيمية .

« وبهذا الرأى الفاسد أطلقوا النفوس من قيد التأثيم ، ودفعوا إلى أنواع العدوان ، من : قتل .. وسلب .. وهتك عرض . ويسروا لها الغدر والخيانة ..وحملوها على فعل كل خبيثة .. والوقوع فى كل رذيلة .. وأعرضوا بالعقول عن كسب الكمال البشرى » (٥٠) .

« ويزيد فى شناعة ما ذهبوا إليه ، أن فى أصولهم : الإباحة والاشتراك المطلقين ، فيزعمون أن جميع المشتهيات حق شائع ، والاختصاص بشىء منها بعد اغتصابا ..

فلم يبق للخيانة محل ، فإن الاحتيال لنيل الحق لا يعد خيانة ، ومثلها الكذب ، فإنه يكون وسيلة للوصول إلى حق مغتصب ـ فى زعمهم ـ فلا يعد ارتكاباً للقبيح .

« لا جرم أن آراء هذه الطائفة مروجة للخيانات .. باعثة على افتراء الأكاذيب .. حاملة للأنفس على ارتكاب الشرور والرذائل ، وإتيان الدنايا والخبائث » (٥١) .

---

(٥٠) المصدر السابق ص ٤٦ (٥١) المصدر السابق ص ٦٦

● **فى الأثر على الانتاج والعمل الانسانى الرفيع :**

« وهذه الطائفة النيتشرية تسعى لتقرير الاشتراك فى المشتهيات ، ومحو حدود الامتياز ، ودرس رسوم الاختصاص ، حتى لا يعلو أحد عن أحد ، ولا يرتفع شخص عن غيره فى شىء ما ، ويعيش الناس كافة على حد التساوى ، لا يتفاوتون فى حظوظهم .

« فإن ظفرت هذه الطائفة بنجاح فى سعيها هذا ، ولاق هذا الفكر الخبيث بعقول البشر ، مالت النفوس إلى الأخذ بالأسهل : فلا تجد من يتجشم مشاق الأعمال الصعبة ، ولا من يتعاطى الحرف الخسيسة ، طلبا للمساواة فى الرفعة . فإن حصل ذلك اختل نظام المعيشة ، وتعطلت المعاملات ، وبطلت المبادلات ، وأفضى إلى تدهور هذا النوع فى هوة الهلاك .

« نعم إن أفكار المصابين بالماليخوليا لا تنتج أحسن من هذه النتيجة . ولو فرضنا محالا وعاش بنو الإنسان على هذه الطريقة العوجاء ، فلاريب أن تمحى جميع المحاسن ، وضروب الزينة ، وفنون الجمال العملى ، ولا يكون لبهاء الفكر الإنسانى أثر ، ويفقد الإنسان كل كمال ظاهر أو باطن ، صورى أو معنوى ، ويعطل من حلى الصنائع ، وتغرب عنه أنوار العلم والمعرفة ، ويصبح فى ظلام جهل ، وبلاء أزل ، وينقلب كرسى مجده ، وينثل عرش شرفه ، ويصحر فى بادية الوحشية كسائر أنواع الحيوان ، ليقضى فيها أجلا قصيراً مفعما بضروب الشقاء ، محاطا بأنواع من المخاوف ، محشوا بأخلاط من الأوجال والأهوال .

« فإن المبدأ الحقيقى لمزايا الإنسان : إنما هو حب الاختصاص ، والرغبة فى الامتياز فهما الحاملان على المنافسة ، السائقان إلى المباراة والمسابقة . فلو سلبتهما أفراد الإنسان : وقفت النفوس عن الحركة إلى معالى الأمور ، وأغمضت العقول عن كشف أسرار الكائنات ، واكتشاف حقائق الموجودات ، وكان الإنسان فى معيشته على مثال البهائم البرية — إن أمكن له ذلك — وهيهات هيهات » ! (٥٢) .

---

(٥٢) المصدر السابق ص ٦٧ ، ٦٨

تلك تحديات الفكر المعاصر الذى تسرب وكاد يستوطن فى المجتمعات الإنسانية .. فى تفكير الخاصة والعامة على السواء ، وهى تحديات تتطلب قوة الإيمان بالإسلام .. وحسن الفهم والعرض لمبادئه فى مواجهة هذه التحديات ، خشية من ضياع شباب اليوم .. وذهاب الإسلام لفترة لا يعلم مداها إلا الله .

إن التحديات المعاصرة للإسلام .. ولكتاب الله .. ولإيمان المسلمين بهما : هى تحديات تصور جولة قاسية ضد القرآن ، من أولئكم الملحدين الصادين عن سبيل الله .. ومن رفقائهم فى الاستعمار ، الذين تدفعهم نوازع السيطرة والاستغلال وراء الصليبية العالمية .. هى تحديات شرسة ، وكريهة ، نفذت بالفعل إلى شرايين الحياة الإسلامية .. وتواجه الآن وجها لوجه : الإيمان بالإسلام فى قلوب ملايينهم ، وبالأخص : قلوب الشباب .

وإن هذه التحديات فى قوة دفعها ..وفى شراسة تشبثها بعقول المسلمين .. وفى نفاذها المحكم : تواجه مع ذلك ضعفا بيننا .. أى بين دعاة الإسلام وعلمائه . وقد تواجه استسلاما من بعضهم .. أو قبولا عند البعض الآخر فى غفلة من الإيمان لديهم .. أو فى يقظة تلتبس بها آمال مؤقتة وزائلة .

وعندما يتسرب الإلحاد إلى قاعات الدراسة فى جامعة الأزهر باسم التبادل الثقافى ، يحمله الصادون عن دين الله من جامعة « كارل ماركس » بالقسم الشيوعى من ألمانيا .. أو بأى اسم آخر : فقد دق عندئذ ناقوس الخطر ، ينذر : بأن شعار : لا إله إلا الله .. محمد رسول الله ، قد أحاطت به سواعد الفناء : فى معقله وفى حصنه الأخير .

وإن الله لا يحفظ دينه إلا بقلوب المؤمنين به . فإيمان القلوب هو الذى يرعى دين الله بالحفظ .. ويحول دون النيل منه فى وجه الظالمين .

فهل لدينا بقية من إيمان تتصدى بها لشرح دين الله ، ورد الشبهات السافرات . وهى سهام قاتلة ، توجه من هنا .. وهناك : إليه ؟ .

إن هذا الحديث عن التحديات للقرآن بالأمس .. واليوم : هو أولا : عرض لخطة الأسلاف منا ، فى الدفاع عن العقيدة والإيمان بها . ومهما يكن

فى خطتهم من نقاط ضعف أو سلبيات : فقد قاموا بواجبهم بالفعل نحو دين الله ، فى مواجهة الرواسب الفكرية والأيديولوجية فى المجتمعات الإسلامية .

وفى الوقت نفسه هو ثانيا : تصوير مجمل للمشاكل والتحديات المعاصرة التى يرمى بها الإلحاد العلمى .. وتدفع بها الصليبية الدولية معه للتشويش على الإسلام أملا فى انصراف الأجيال التى ستتحمل المسئولية غداً فى المجتمعات الإسلامية : عنه ، وعن مبادئه وبذلك تهتز أقدام المسلمين على أرض مجتمعاتهم .. ويعيشون أتباعا لسلطان غيرهم .. وعلى الفتات الباقى من ثروات بلادهم ، والتى يعملون فيها آنئذ لحساب هؤلاء الأسياد .. أو لأولئكم .

فهل يسمع النداء ؟ .. وهل من مجيب ؟

* * *

obeikandl.com